علم الانسان

(٤) النظام الاجتماعي

اذا شئت درس حال امة من الامم للوقوف على دخيلة امرها وحقيقة مركزها الاجتماعي وجب من مبتدإ الامر ان تلمّ تمام الالمام بنظامها الاجتماعي في جميع صوره واشكاله اذ يتخيل العلم باخلاق امة او بواطنها قبل العلم بظواهرها . فسبيل الباحث والحالة هذه هو السعي الى معرفة الاخلاق الباطنة بطريق النظامات الظاهرة

ربّ سائل يسأل كيف وجدت صور النظام الاجتماعي . هل اخترعها احد . وهل تنطوي فكرة النظام على منظم سابق لهُ ام تنمو تلك الصور نموّ البلورات بالاضافة اليها من الخارج . والرأي ان الضرورة الطبيعية والحرية العقلية عاملان متداخلان في حياتنا وان لكل منها يداً في ابلاغنا هذه النتيجة او تلك . ولنسمّ الضرورة الطبيعية قوة الظروف القاهرة والحرية العقلية قوة الارادة او القصد العاقل

قال الباحثون في الحياة الانسانية ان العوامل الرئيسة التي تتسلط عليها وتكيفها هي التربية والنظام الاجتماعي وعدد الشعب والطعام والاختراع وكل منها معتمد على ما يليهِ . وترى في هذه السلسلة أن طرفيها اي التربية والاختراع عاملان معنويّان والحلقات التي بينهما اثنتان منها ماديتان وهما العدد والطعام والثالثة اي النظام الاجتماعي بين بين . والذين جعلوا الاختراع الركن الاكبر في هذه السلسلة وامرّ نظام المعيشة الانسانية خالفوا مذهب القائلين بان النشوء الانساني عمل طبيعيٌّ صرف . وعندهم ان الحياة الانسانية اصطناعية وبعبارة اخرى ان يد الصناعة ظاهرة كل الظهور فيها وان اعظم ما يميز الانسان عن غيره من الحيوانات هو تأثرهُ بالصناعة

لا يخفى ان اختراع الآلات في اواسط القرن الثامن عشر افضى الى ثورة صناعية لا يزال اثرها في السياسة والاجتماع باقياً الى يومنا هذا وهو كلّ يوم على ازدياد . والحق يقال ان التاريخ الانساني ليس الاّ تاريخ الاختراعات العظيمة . ولكن طبيعة البلاد تساعد على تعيين نوع الطعام ومقداره بوجه الاجمال حتى انهُ لا يمكن انبات القمح مثلاً في البلاد المجمدة مهما اتسعت حيلة الانسان في الزراعة فلا يقصدها الاّ طلباً للصيد

ولنفرض ان مخترعات امة من الامم كافية لاخراج مقدار معلوم من الطعام وحينئذٍ

يمكن الانسان على ما قال مشوس داروين ان يعيش بنوع واحد من الطعام ما يكفاه مع ذلك المقدار وبعبارة اخرى يمكنه تكثير ولده الى حدٍّ يكون بينه وبين الطعام نسبة ثابتة

فاذا فيما مرَّ ان النظام الاجتماعي يعتمد على العدد فلننظر الآن في وجه ذلك الاعتماد. فقد حاول بعض العلماء ان يبين انهُ يمكن التوفيق بين مقدار معلوم من السكان وبين كل درجة من درجات ارتقائهم في السلَّم الانساني حتى بلغوا ارقى درجة من الحضارة. مثال ذلك ان بعض القبائل الواطئة في سلَّم الارتقاء كالاقوام مؤلفة من جماعات صغيرة جدًّا كلٌّ منها تشتمل على عشرة اشخاص الى اربعين. والجماعات التي ارقى منها قليلاً كالاستراليين الاصليين مؤلفون من قبائل في كلٍّ منها ٥٠ شخصاً الى ٢٠٠. ومعظم قبائل اميركا الشمالية وهم ارقى من الاستراليين مؤلفون من جماعات عدد كلٍّ منها ١٠٠ الى ٥٠٠. وقد سمَّى هذه القبائل كلَّها متوحشة وهم خواصها ومميزاتها من الجهة الاقتصادية انها قبائل رحَّل تعيش بالصيد والقنص

واستطرد في تقسيم هذه فقسم الامم التي هي ارقى قليلاً من المتوحشة الى ثلاثة اقسام سماها كلها برابرة. اما القسم الاول فيشمل القبائل التي تستقرّ في مكان من الارض لاحتراف الزراعة او ترحل من مكان الى مكان اتجاعاً للكلاء كقبائل الهنود الاميركيين المسماة ارپكوين وقبائل الموري في زيلندا الجديدة. والقبيلة منهم تتألف من ١٠٠٠ الى ٥٠٠٠. والثاني يشمل القبائل التي طما بعض النظام كقبائل الداهومي والاشنتي في غرب افريقية. وقد يبلغ عدد القبيلة منها مئة الف. والثالث القبائل التي هي ارفع نظاماً كالجيشان واهل مدغشقر وعدد كلٍّ منهم نحو نصف مليون

هذه هي زبدة تقسيمه. ويقال اجمالاً ان اختلاف النظام الاجتماعي وتلاؤم اجزائهِ في اوائل عهد الارتقاء الانساني تابعان لحجم الجماعة. ولما كان حجمها تابعاً لطريق معيشتها الاقتصادية فلا بدع اذا صحَّت جماعة الطعام اعني الجماعة التي يتوقف مقدارها على مقدار ما تجدهُ من الطعام

وهناك حالة اولية غير الطعام تؤثر في النوع الانساني تأثيراً جوهريًّا وهي الميل الى الزواج واختلاف النسل. فبذلك يكون نظام الاجتماع ذا وجهين اثنين واحد وهو الاهم وجه طلب الطعام. والثاني وجه طلب الزواج. فقد كان الناس في حال فطرتهم الاولى يطلبون الصيد جماعات كسائر الحيوانات الاجتماعية ويعيشون جماعات ايضاً ويحصر تزاوجهم فيهم ولكن لما جعل كل بيت منهم يتزوج من غير بنات امر التزاوج اعظم شأناً من امر الطعام لان

الحصول على الطعام سهل تستطيعهُ القبيلة نفسها في حين ان تزوج غريبة انما هو من المسائل الصعبة التي يقتضي حلها اخذاً وعطاء من الطرفين

وعلى ذكر نظام الزيجة الخارجية نقول ان العلماء مختلفون في هل كان الناس في حالة فطرتهم الاولى يتزوجون اقاربهم الاقربين ام يتزوجون الاباعد عنهم . وبعبارة اخرى اية العادتين كانت السابقة عادة التزوج الخارجي ام عادة التزوج الداخلي . فقد وجد بعض الباحثين في عادات قبيلة الفيدا من سكان غابات سيلان ان فئة منها تتزوج من الفئات الاخرى بحكم عادة قديمة وان فئة اخرى لا تتزوج من الغير . ومن رأيهم ان الفئة التي يتزاوج رجالها ونساؤها كانت فيما مضى تتزوج من الخارج ثم طرا عليها ما حال دون ذلك فرقمت بين شرّين فاما ان تتزوج من الداخل واما ان تمتنع عن التزوج بتاتاً فاختارت الاول وهو الاصغر . ويقول البعض انها عادة الانسان الاول ولكن ليس ثمة دليل بيّن على صحة هذا القول

ومن اكثر العوامل تأثيراً في النظام الاجتماعي وتكييفه مبدأ ملكية الافراد وخصوصاً الملكية العقارية . فان قسمة الناس الى غني وفقير هي اعظم ما يميز طبقاتهم المختلفة بعضها عن بعض . وقد يقسمون في بعض البلاد الى احرار وعبيد او الى اصحاب حرف شريفة وحرف دنيئة ولكن اساس هذه التقاسيم كلها ملكية الفرد كما تقدم اذ قد جرت العادة بان يسمى من الحرف شريفاً ما عاد على صاحبهِ بربح حسن وما قلّ ربحهُ فهو الخسيس الدنيء

قلنا ان نظام الاجتماع يتوقف على العدد وهذا على المهارة التي تبذل في طلب الطعام . ولكن هذا القول يصح الى حدٍّ محدود اذ لا مشاحة في ان تركيب الجمعية البشرية وتنظيمها يتوقفان على الفهم والادراك . فانهُ ان كان نظام الاجتماع نتيجة طبيعية لنمو السكان فهو كذلك من صنعة العقل الانساني الذي شحذ غراره لاختراع طرق واساليب شتى في جمع الناس جماعات كبيرة للتعاون على العمل معاً

لذلك اذا نظرنا الى الجمعية الانسانية نظراً خارجياً صرفاً خيّل الينا انها لا تخرج عن كونها آلة مسخرة لقضاء غاية اي انها نتيجة الادراك لا الادراك نفسهُ . ولكننا سنرى فيما يلي ان هذه الآلة الاجتماعية تتحرك من نفسها ومتى اطلعنا على تركيبها الداخلي والمنا بقوتها المحركة لما اضطررنا اذ ذاك الى العدول عن رأينا الاول فيها وحكمنا بانها ليست مجرد آلة صماء عمياء بل جسم حيّ بل اكثر من ذلك — اني انها مجموعة نفوس وعقول مستقلة ولكنها متداخلة بعضها في بعض تسعى معاً في طلب استقلال الفرد والحرية